# جبرا: المدينة والتكوين الذاتي
## قراءة في سيرة جبرا الذاتية(*)

م.م.خليل شكري هياس
*جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية*

أ.د. ابراهيم جنداري جمعة
*جامعة الموصل / كلية التربية*

ملخص البحث :

تشكل المدينة احد الروافد الاساس التي اسهمت في تكوين شخصية جبرا ، واثرت في مسار حياته ، ففيها ولد ونشا ، وفيها عاش حياته متنقلا بين مدينة واخرى ، فهو يقيم نظرته الى المدينة على انها: صانعة رمز ، وفضاء وتحولات في الحياة ، كما في الفكر والفنون والاداب وهي بهذا تتمثل وتعبر عن وجودها في ثلاث صور:

1. هي الموسوعة: لما لحياتها ، وللحياة فيها من تعدد الرؤى ، وغنى مجالات الفكر ، وافاق الابداع ، بما تقدم للانسان ، ويقدم لها من معارف ، وعلوم ، وفنون ، وآداب .
2. وهي مسرح بما يكون للانسان فيها من (ادوار) في الحياة ، ومن تعدد وجوه العطاء الانساني .
3. وهي متاهة ، لا مخرج منها للانسان ، ولا نجاة اذا ما دخلها وانغمر في حياتها .

---

## Gabra: City and Self Construction
## Reviw of Gabra's Biography

**Kalil Shukri Salih**
***University of Mousle-College of Essential Education***

**Dr. Ibrahem Gindari Gumaa**
***University of Mousle-College of Education***

## Abstract:

The city constitutes on of the main parts contributed in forming Gabra s personality , and affected the course of his life . He was boun and raised in a city , and spent his life travelling from one city to another . He assesses his view to the city as being : a symbol maker , a judiciary

(*) بحث مستل من رسالة ماجستير بعنوان (سيرة جبرا الذاتية في البئر الاولى وشارع الاميرات) ، خليل شكري هياس ، مقدمة الى كلية التربية – جامعة الموصل ، 2000 .

system , and change in life as in thought , arts and literature . Thus , city can be represented in the following three pictures :

1. an encyclopedia : regarding life in the city and what it can offer of multivisions , rich aspects of thinking , increasing horizons of creation , of all what it can offer to man and what can man , in return can give to the city of knowledge , sciences , arts and literature .

2. a stage : viewing the roles played by humans on its platform and the stage of life , and the various aspects of human contributions.

3. A closed – ended maze , where a man cant get away from , and cant be saved from the first moment of entering , and enrolled in its life .

المقدمة :

تشكل المدينة احد الروافد الاساس التي اسهمت في تكوين شخصية جبرا ، واثرت في مسار حياته ، ففيها ولد ونشا ، وفيها عاش حياته متنقلا بين مدينة واخرى ، ولعل التخطيط الاولي لحياة جبرا يكشف عن طبيعة علاقة جبرا بالمدينة كما في المخطط الاتي :

| فلسطين | انكلترا | فلسطين | بغداد | باريس | امريكا | بغداد |
|---|---|---|---|---|---|---|
| المكان | الدراسة | العودة الى المكان الاومي | البحث عن فرص العمل | السياحة والاطلاع على الثقافة الغربية | زمالة دراسية | المكان البديل |

فهو يقيم نظرته الى المدينة على انها : صانعة رمز ، وفضاء وتحولات في الحياة كما في الفكر والفنون والاداب

ومن هنا فالمدينة عند جبرا تتمثل وتعبر عن وجودها في ثلاث صور :

1. فهي الموسوعة ، بما لحياتها ، وللحياة فيها من تعدد الرؤى ، وغنى مجالات الفكر . وافاق الابداع ، بما تقدم للانسان ، ويقدّم لها من معارف ، وعلوم ، وفنون واداب تفتح المجال رحبا امام عقل العصر وبما يشيّد ، هذا الانسان ، فيها من بناءات تغذي ، وتمكن ما تقوم عليه حياتها من اساس روحي .

2. وهي مسرح بما يكون للانسان فيها من (ادوار) وفي الحياة ، ومن تعدد وجوه العطاء الانساني .
3. وهي متاهة ، لا مخرج منها للانسان ، ولا نجاة ، اذا ما دخلها وانغمر في حياته[1].

ان علاقة جبرا بالمدينة علاقة صميمية ومتفردة تتضح من خلال حضورها الدائم والحي في اغلب كتاباته الابداعية حتى ان توفيق الصائغ يعد جبرا شاعر المدينة في ادبنا العربي المعاصر [2] . فهي تمثل عند جبرا "بؤرة انبعاث وتجدد ، وفضاء ابداع فعلي للحضارة الانسانية الحديثة ... وهي من الزاوية الاخرى ، وجود مكاني مرتبط برؤية زمانية متجددة تتوجه نحو بناء المدينة العربية الجديدة التي تعطي انسانها مما تاخذ منه ، وتمنحه الاحساس بان وجوده فيها وجود مغيّر (بمعنى : الحركة المنتجة والفعل الخلاق)"[3] .

ولما كان فضاء المدينة في سيرة جبرا الذاتية يشكل الارضية التي تدور عليها احداث سيرته بكل تفاصيلها وجزيئاتها الصغيرة ، وتفصح بشكل واضح عن مراحل تكوين الذات ، ثقافة وابداعا ، وعاطفة فان جبرا في رسمه لفضاء المدينة في السيرة لم يركز على تناقضات المدن التي عاش فيها ، ومدى اختلافاتها ، وانما ركز على نقطة واحدة جوهرية في حياته الفكرية وفي بناء رؤيته الابداعية وهي استقصاء مراحل تكوين الذات من خلال المكان ، فكان لكل مدينة عاشر فيها اثرها ودورها في تكوين شخصيته ، لا تتشابه مع غيرها من المدن بقدر ما تكون مكملة لها في الدور والتاثير ومن "هنا امام مثل هذا الموضوع – الجوهر في حياة جبرا الفكرية وفي بناء رؤيته الابداعية ، تحاول استقصاء كينونة واحدة ، نجدها تتنامى عنده، على (مر)[4] الايام : وعيا ، ومعرفة ، وعاطفة ... هي كينونة الوجود ذاتا ابداعية ورؤيا خلاقة في ما بين" [5] المدن التي عاش فيها جبرا .

ومن اولى هذه المدن ، بيت لحم التي ولد فيها جبرا ونشا الى سن الثالثة عشرة ، ولو نظرنا نظرة تحليلية للفضاء الذي تشكله هذه المدينة في السيرة ، نجد الكاتب يركز على نقطتين اساسيتين كان لهما الاثر الكبير في حياته .

---

(1) جبرا ابراهيم جبرا والمدينة القدس–بغداد–القدس: بحثا عن الزمان المجسد ، ماجد السامرائي ، مجلة فيلادليفيا ، عمان ، العدد 2 لسنة 1989.

(2) عرق وبدايات من حرف الياء ، جبرا ابراهيم جبرا: مقدمة توفيق الصائغ للكاتب: 7.

(3) جبرا ابراهيم جبرا والمدينة القدس–بغداد– القدس:بحثا عن الزمان المجسد: 98.

(4) اسقط الباحث كلمة (مر) وبها يستقيم الكلام.

(5) جبرا ابراهيم جبرا والمدينة القدس –بغداد– القدس: بحثا عن الزمان المجسد: 98.

الاولى : هي ارتباط المدينة بالديانة المسيحية من حيث كونها موطن السيّد المسيح (عليه السلام) "بيت لحم كانت بالنسبة لي مدينة المسيح ايضا ، فاوجد ذلك صلة حية بيني وبينه"[1] . ويبدو هذا الاثر واضحا في السيرة اذ اتسمت نشاة جبرا بالطابع الديني فما ان بدا وعي جبرا – الطفل – بالتشكل وبدات المرئيات تكشف عن نفسها امامه –وهو ما يزال طفلا صغيرا في الخامسة او السادسة من العمر– حتى اخذه والده يعرفه على الكنيسة في محاولة منه لزرع بذرة الحب لهذا المكان المقدس وترسيخ تعاليم هذا الدين في فكره وروحه . كما ان تعليمه المدرسي كان في بادئ الامر تعليما دينيا لارتباط المدارس التي درس فيها جبرا في المراحل الثلاث الاولى بالكنيسة الى ان انتقل الى مدرسة بيت لحم الوطنية التي شكلت بدورها منعطفا كبيرا في حياته اذ ان لهذا الاتصال المبكر بالكنيسة وتعاليمها الاثر الكبير في حياة جبرا فلقد تشربت روحه بتعاليمها وطقوسها لذا جاءت السيرة زاخرة بالكثير من الصور العاكسة لطبيعة تلك التجربة المتصلة في هذا المكان المقدس .

والثانية : هي جمال الطبيعة في بيت لحم اذ تقترب هذه المدينة من فضاء الريف بهدوئه ومناظره الخلابة وانفتاحه اللانهائي على الاراضي الزراعية والحواكير باشجارها المختلفة من زيتون وتين ولوز ... الخ ، وقد وقف جبرا عند هذه النقطة كثيرا في سيرته موضحا اثرها على حياته ولا سيما في تقديمه لفضاء البيوت التي عاش فيها ، عندما قارن بين ضيق الداخل متمثلا بتلك الغرف البائسة التي كانت الاسرة تقطنها وانفتاح الخارج الذي يتمثل بالحواكير والاشجار والفضاءات الفسيحة المحيطة بالدور التي سكنها جبرا في بيت لحم.

ومنها ايضا تقديمه لفضاء بيت لحم في فصل الربيع الذي ياتي دائما متزامنا مع عيد القيامة ، اذ يقف جبرا هنا ليرسم صورة حية عن جمال هذه المدينة وقد تحولت الى بقعة خضراء تعد ساكنيها بالمزيد من النضارة والحياة ، وتمتزج فيها روعة تجربة العين بنشوة تجربة الاحاسيس وبهائها "وعيد القيامة ياتي دائما مع الربيع . تخضر الحواكير المهملة ، وتنتشر فيه الزهور من كل شكل ولون . وهناك الحنون الاصفر ، والحنون الازرق ، والحنون البنفسجي . وهناك ذلك الحنون الاحمر ، القاني بلون الدم : شقائق النعمان . ترفع رؤوسها الشقائق للشمس ، والندى يتلألأ على وريقاتها ، من بين الحجارة . والاشواك ، والاعشاب الغريبة ، وهي ترفع رؤوسها مختالة حتى عند قواعد الجدران التي ينتشر عليها الصبار بعتوه الشائك ، مطلقا زهراته الصفراء الرقيقة قبل ان تتحول الى فاكهة مصفحة بالشوك . في ظلال اشجار التوت ، والتفاح ، والمشمس ، واللوز ، والرمان تنبثق الشقائق كالجروح الضاحكة من التربة الحمراء . وبين زيتونات وادي الجمل ، على مد البصر ، بين الحنون الاصفر والازرق والبنفسجي . تنقط

(1) ينابيع الرؤيا: دراسات نقدية ، جبرا ابراهيم جبرا: 118.

الشقائق المشهد المترامي بدم النعمان ، وفي حقول القمح والشعير ، طوال الطريق الى بيت ساحور ، وفي الاراضي الممتدة حولها ، تتمايل الشقائق مع السنابل الخضراء ، وتتلقى اجنحة الاف العصافير وهي تهبط عليها من السماء الزرقاء ، لتعود فتحلق وتغيب في الفضاءات التي لا تحدها الا الجبال الزرقاء البعيدة"[1] .

يلاحظ على هذا النص ان الكاتب في تقديمه لهذه الصورة انما هو واقع تحت تاثير التيار الرومانسي اذ نجده ينظر الى الطبيعة نظرة تاملية ايحائية يمتزج فيها جمال الطبيعة باحلام الكاتب ورؤاه وتتوحد فيها التجربة المادية المجردة المتمثلة بجمال الطبيعة وبهاءها بالتجربة الجسمية المطلقة المتمثلة بالروح الدينية وذلك من خلال تزامن مجيء الربيع مع عيد القيامة فهذا الارتباط لم يكن ارتباطا اعتباطيا او مجرد صدفة تاريخية ، وهذا ما يفصح عنه جبرا في مقالة (القدس الزمان المجسد) عندما يتحدث عن هذا الموضوع فيربط بين شقائق النعمان وفكرة الحياة والموت "فليس عجيبا ان تكون الشقائق ، منذ اقدم الازمان ، رمز الاله القتيل ، ورمز عودته الى الحياة من جديد ، فتكون بالتالي رمزا للارض المقدسة"[2] .

ويسترسل جبرا في رسم صورة بيت لحم في اثناء فصل الربيع فيرسمها عند العشيات وقد تحولت سماؤها الى فضاءات لازوردية تغطيها اسراب السنونو التي كانت تفد الى المدينة في هذا الفصل "في العشيات تعبر الفضاءات اللازوردية رفوف السنونو ، وقد وفدت من جديد الى الارض التي تحبها ... عشيات الربيع في بيت لحم اينما كنا نلعب ، او نغني نروي الحكايات ، كانت تصخب بجحافل السنونو تعبث وتلهو وتدور وتسف على اسطح البيوت ثم تعلو في السماوات الرحاب ، نتابعها وهي تغير وتنعطف وتستدير ، ثم تغير وجهة طيرانها ، لاسباب لا نعرفها ، ولا يصطدم واحد منها بالاخر ، وتملأ الاجواء فرحا وبهجة نتلقى فعلها في انفسنا دونما وعي ، فيشتد صخبنا . ونمعن في الركض والقفز ، ونرفع اصواتنا في الغناء، والصياح ، وقد استلقي لوحدي على الارض المعشوشبة ، لألحق بعيني حركة اسراب السنونو وهي تتقاذف بين غيمات السماء المتباعدة كالامواج . واحاول ان اعدها ! اخفق ، فاعيد الكرة ، واحاول من جديد . والغيوم الان باتت بيضاء ، كقطعان الخراف ، واتابع تحولاتها السحرية . واذا هي تتمدد وتستطيل ، واذا الخراف حيتان هائلة ، واذا هي نسور عجيبة تنتشر قوادمها عبر المسافات الزرقاء القصية ، ولا تتحرك ... وقد ابقى ارقب هذه السحب الرقيقة ، وقد احمرت حوافها بشمس المغيب . ثم تتحول الى برك مدهشة من الذهب المسفوح . واذا طلع البدر وصعد في ساعتين او ثلاث الى احدى قممه العلوية ، اصطفت الغيوم البيضاء حوله في دوائر منداحة مذهلة ، وكأنها

(1) البئر الاولى: 58-59.

(2) ضمن كتابه الرحلة الثامنة: 173.

الاف الخراف مرة اخرى ، او كانها الان ، اذ تتالق في بعضها ، نثار الاصداف التي نصنع منها الصلبان والصور والتماثيل"[1] .

وفي هذا النص تنطلق حركة الرؤيا لدى الكاتب لتستحضر صورا لمكان الالفة المختزنة في الذاكرة ، فبعد ان انتهى من وصف الارض يبدا بوصف السماء ليعطي صورا حية وكاملة لفضاء هذه المدينة في هذا الفصل البهي ، وللسماء كما نعلم رموز مكانية تحمل دلالات ومعاني كثيرة ، ابرزها الدلالة على العلو الشاهق ، وعلى المعاني الدينية ، وعلى معاني السمو والقيم الروحية ، وعلى الخصب والخير .

وقد جاء هذا النص محملا بجميع هذه المعاني والدلالات فيما عدا الدلالة الدينية ، ولكن اذا ما ربطنا هذا النص بما قبله نجد لهذه الدلالة حضورها المميز عندما يربط الكاتب بين فصل الربيع وعيد القيامة الذي ياتي متزامنا مع هذا الفصل ، وفي هذا النص ايضا تمتزج الرؤية البصرية او الواقعية بالرؤيا الحلمية او الخيالية عندما نجد الكاتب يشبه الغيوم البيض بقطعان الخراف التي سرعان ما تتحول الى حيتان هائلة او نسور عجيبة بتمدد هذه الغيوم واستطالتها .

وخلاصة ما يمكن ان نستنتجه ان الكاتب في تقديمه لفضاء بيت لحم انما يحاول التركيز على مسالة اساسية هي صراع الذات وتغلبها على محيطه الذي يعيش فيه بكل فقره ، ومعاناته ، فكانت المدينة بطبيعتها الخلابة وتعاليمها الدينية ملاذا لجبرا ومأوى حميما يلجا اليه للتخلص من ضيق الحياة ومنها يستمد قوته في التغلب على صعابها ، ويصد هجوم ليتذوق طعم الحياة وتشكل القدس المدينة الثانية في حياة جبرا بعد ان انتقل اليها مع اسرته وهو في سن الثالثة عشرة من العمر ليعيش فيها مرحلة الصبا وبدايات النضج . وعلى الرغم من اهمية هذه المدينة واثرها في تكوين شخصيته من جهة وحبه لهذه المدينة وتعلقه الكبير بها من جهة اخرى الا انها لا تشغل مساحة كافية في سيرته الذاتية . ففي البئر الاولى لم يتحدث جبرا عن هذه المدينة الا في الفصلين الاخيرين من الكتاب ، واما سيرته في شارع الاميرات فقد جاءت لتخص تلك المرحلة التي عاشها في بغداد بعد نكبة 1948 مع مرور سريع على بعض الاحداث والامكنة المرتبطة بفترة دراسته في انكلترا ، اذ يقف عند خروجه الاول من فلسطين الى انكلترا عبر البحر ، ووقوفه عند بعض جزيئات تلك الحياة . واما القدس ، هذه المدينة التي امست بعيدة عن جبرا مكانا ، والحاضرة في الذهن ابدا فقد اخذ الكاتب يستحضرها في سيرته الثانية بين الحين والحين [2] في محاولة منه لاستعادة ذكرياته عن هذه المدينة التي ينتمي اليها جبرا ، ارضا وتاريخا فيما

(1) البئر الاولى: 59.

(2) ينظر: شارع الاميرات: 46-48 ، 74-76 ، 190 ، 201-203.

يسميه جبرا "التامل المستعاد"[1] عندما تتراءى له "وكأنها اصبحت من ذكريات جنة لن تطأها اقدام البشر مرة اخرى"[2] .

ومع ذلك يمكن استكمال مسار هذه المرحلة واثر القدس في تكوين جبرا من خلال تتبع مقالاته وحواراته التي نشرها في كتبه النقدية وكذلك من خلال كتاباته الابداعية الاخرى (شعر ، قصة ، رواية) ، اذ نجده يصرح بذلك في اكثر من مناسبة [3] ويمكن ان نضيف مقدمة علي الفزاع التي تحدث فيها عن حياة جبرا ، اذ يشير الى ان جميع المعلومات المتعلقة بحياته وظروف اسرته ذكرها له جبرا نفسه في مقابلات عديدة معه [4] .

ويواصل جبرا تعليمه في القدس على الرغم من كل الظروف الصعبة المحيطة به ، من مرض والده الذي جعله طريح الفراش لما تبقى من عمره وسكنه في غرفة واحدة تقع في أحد الأحياء الشعبية في جورة العناب ، والفقر المدقع الذي اخذ يحكم خناقه على الاسرة [5] . وامام كل هذه الظروف نجد جبرا يواصل دراسته في مدرسته في القدس (المدرسة الرشيدية) باصرار وعزيمة اكيدين ، وبتصميم عنيد ، لتنتصر الذات في النهاية في صراعها مع المحيط. ففي تلك الغرفة الضيقة التي كانت تضم الاسرة بافرادها العديدين ووسط ذلك الضجيج المنبعث من البناية بغرفها العديدة وساكنيها الكثيرين ، كان جبرا يحضر واجباته المدرسية ، ويطالع ما يتيسر له من الكتب ، على ذبالة مصباح الكاز وانين الوالد المقعد [6] .

ويواصل جبرا مشواره مع التعليم في القدس فينتقل من مدرسة الرشيدية بعد انهائه الصف الثاني الثانوي الى الكلية العربية حال افتتاحها عام 1935[7] ، هذه المؤسسة المدهشة على حد تعبير جبرا ، التي اخذت على عاتقها جمع الطلبة المتفوقين في المدارس الحكومية ليدرسوا فيها

---

(1) جبرا ابراهيم جبرا والمدينة القدس –بغداد– القدس: بحثا عن الزمان المجسد: 88 .

(2) شارع الاميرات: 147.

(3) ينظر: م.ن: 253.

(4) جبرا ابراهيم جبرا: دراسة في فنه القصصي ، علي الفزاع: 5.

(5) البئر الاولى: 163 ويذكر علي الفزاع ما لم يذكره جبرا في سيرته من ان والدة جبرا اضطرت ان تعمل في البيوت لتتمكن الاسرة من الحصول على كفافها ، وينظر: جبرا ابراهيم جبرا دراسة في فنه القصصي:6.

(6) ينظر: البئر الاولى: 173–178 .

(7) جبرا ابراهيم جبرا: دراسة في فنه القصصي: 7.

سنتين او ثلاث قبل تخرجهم معلمين او طلاب بعثات الى الجامعة الامريكية ببيروت او جامعات انكلترا [1] .

وعندما يجتاز جبرا سنوات الدراسة في هذه الكلية بتفوق كبير ، تفكر ادارة المعارف في فلسطين بارساله ، في بعثة دراسية الى انكلترا لدراسة الادب الادب الانكليزي ، غير ان ظروف الاسرة المادية تضطره الى رفض هذه البعثة كي يتعين معلما في احدى مدارس القدس ، ولكن مدير المعارف يقنعه بالعودة الى الكلية لدراسة شيء من المسلكيات واساليب التدريس لمدة سنة ، ليعين بعدها براتب افضل من راتبه فيما لو عين من غير تلك السنة الدراسية ، وخلال تلك السنة تقنعه ادارة المعارف بالذهاب في بعثة دراسية الى انكلترا الا ان نتيجة الفحص الطبي الذي اجري له قبل السفر اكدت انه مصاب بمرض التراخوما في عينيه وانه يحتاج الى علاج لمدة سنة كاملة قبل ان يسمح له بالذهاب ، وامام هذا الامر تضطر الدائرة الى تعيينه معلما كما كان يريد ، فعين في المدرسة العمرية ومن ثم انتقل ومن ثم انتقل الى المدرسة البكرية بعد شهر واحد من التعيين . وبعد انقضاء تلك السنة التي قضاها جبرا بالتدريس ، ومعالجة عينه ، كانت ظروف الاسرة قد تحسنت بعض الشيء ، مما جعل التفكير بالبعثة امرا ممكنا ، وبهذا تقرر وبشكل نهائي ايفاده الى بريطانيا [2] . وهكذا نجد جبرا التلميذ "يهزم فقره بادوات تنتمي الى القيم والارادة والمعرفة ، كان القفز الذي سمت الروح فوقه ، كان شرطا للدخول الى غنى متعدد الالوان"[3] .

والقدس هذه المدينة الحاضرة دوما في ذاكرة الكاتب وفي معظم كتاباته الابداعية كان لها التاثير الكبير في تكوين ذاته الابداعية وفي تشكيل وعيه وبناء رؤيته ، فهي ليست مجرد مكان كما يصورها في احدى مقالاته الخاصة بهذه المدينة ، بل "انها زمان ايضا ، فهي لا يمكن ان ترى بوضوح ضمن نطاقها الجغرافي المحدود فحسب ، لانها حينئذ لن تفهم . انها يجب ان ترى في منظورها التاريخي ، وترى كأن التاريخ – تاريخ اربعة الاف من السنين – اجتمع في لحظة واحدة ، هي اللحظة التي يراها المرء فيها"[4] وهي في هذه المقالة تتحول الى كائن نابض بالحياة يقف شامخا على جبل ، ينظر الى البحر من جهة والى البادية من جهة اخرى ، وقد جمعت بين "قوتين حضارتين في تفاعل ابدي وفي هذا التفاعل سر مأساتها وسر عظمتها معا"[5] .

---

(1) ينظر شارع الاميرات: 12 .

(2) جبرا ابراهيم جبرا: دراسة في فنه القصصي: 8–9.

(3) رواية جبرا ابراهيم جبرا: فلسطيني الاحلام او فلسطيني المستحيل ، ضمن كتاب (القلق وتمجيد الحياة): 20.

(4) الرحلة الثامنة: 155.

(5) م.ن: 156.

وعلى الرغم من ابتعاد جبرا عن القدس فقد ظلت حاضرة في ذاكرته يتذكر شوارعها واحياءها واشجارها واراضيها "كادم يذكر الجنة، فالصبي اذ ينمو ، تنمو المدينة في كل زاوية من زوايا نفسه ، وصباه انما هو انعكاس لمئات الطرقات والبيوت والحوانيت والازقة والاشجار والبقاع المزروعة التي تخضر في الربيع وتصفر في الشتاء ، والصخور المنتشرة في كل مكان ، التي تؤلف المدينة . اين تنتهي الذات ويبدا الموضوع هنا ؟ شارع بكى فيه الولد ، وجاع ، وضحك ، وعشق فتاة لا يعرف أسمها لأنها ابتسمت له من غير قصد ، وركض فيه في المطر ، في الظلام مع اخوته ، مع والديه ، مع العشرات من أصدقائه الذين ما زال يسمع في ذهنه أصواتهم المتجاذبة بين مباني الشارع : مثل هذا الشارع هل يمكن ان يبقى امتداداً هندسياً موضوعياً مجرداً ؟ " [1] .

ويواصل جبرا مشواره في تكوين الذات فنلاحظ ان موضوع الفقر وصراع الأنا في التغلب عليه بالتفوق في المدرسة والذي يتصدر المرحلة الاولى في حياته يتحول في المرحلة الثانية عندما يسافر الى انكلترا للدراسة الى موضوع الغربة والنجاح .ففي مدن انكلترا كانت بداية انطلاق الذات وانفتاحها على كل ما هو جديد وغريب ، ثقافة ، وعلما ، وعلاقات كان من شأنها إغناء تجربة هذا الشاب المقبل على الحياة بنهم وحب كبيرين .

ففي اكسترا التي قضى جبرا سنته الدراسية الأولى ينقل لنا الراوي جانباً من تلك الحياة التي عاشها في هذه المدينة التي كانت مسرحاً لانطلاقاته الذهنية والحسية يقبل على شراء الكتب بنهم بعد ما تعرف على شيخ رصين يعمل في مكتبة رئيسة مسؤولاً عن الكتب المستعملة ، وفيها يتعرف على مجموعة من الطلبة يجمعون الى متعة النقاش والمحاججة متعة الصحبة الجميلة [2] ، وفيها يتعلم الرقص ويعرف الحب ، هذا الحب الذي كان "عاصفاً كالريح . وجارفاً كالسيل ، فضاؤه الحقول الخضراء والأشجار البواسق ، يضج بالجسد كما يضج بالروح ، إذ كانت الروح هي مطلقة ذلك الكلام الجامح اللامنتهي " [3] . إذ نجد جبرا يقيم علاقة حب مع اكثر من فتاة ، فهناك برناديت ابنة الستة عشر ربيعاً وهناك غلاديس زميلة جبرا في الدراسة ، وهناك جين هاريسون التي تعرف عليها في أحد البارات [4] .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن جبرا في ذكره لتفاصيل تلك العلاقة الغرامية لا يتحرج في ذكر الأسماء النسائية ممن كان على علاقة بهن ، مع التنويه بطبيعة تلك العلاقة المادية القائمة

---

(1) ن.م . 160.

(2) ينظر : شارع الأميرات : 25-26.

(3) م.ن : 27.

(4) ينظر م.ن : 26-27 ،35.

على حضور الجسد والخارجة على نطاق الهوى العذري ، في حين نراه يتحرج في ذكر اسم الطالبة العراقية التي احبته وكانت بينهما رسائل متبادلة استردتها بعد زواجه من لميعة وقدمت له هدية ثمينة دلالة على نبلها . أو أسم تلك السيدة العراقية التي تعرف عليها في باريس [1] .وهو في هذا إنما يحاول ان يعبر عن حال المرأة في كل من البيئتين ، إذ أن تصريحه باسماء النساء في انكلترا إنما هو تعبير عن الحرية الكبيرة التي تتمتع بها تلك المجتمعات في حين يتحرج من ذكر اسماء النساء العربيات لأن التقاليد والأعراف لا تسمح له بذلك هو بهذا يعكس حرصه على تجنب كل ما من شأنه خدش الحياء ، فالكاتب هنا شانه شان اغلب كتاب السيرة الذاتية العربية لا يستطيع تجاوز القيم الأخلاقية والأعراف الاجتماعية السائدة في المجتمع ، فالمجتمعات العربية كانت تضع المرأة في عزلة تكاد تكون تامة فضلاً عن الجهل والقسر ، فالأديب هنا إنما يعكس حالة المرأة في بيئته ويؤرخ لحياتها في ذلك العهد ، وشكل الحياة التي عاشتها وعاشها معها في المجتمعين [2] .

ولأنه يدرك أن ما يكتبه هنا شخصي بحت يتصل بالأنا مباشرة بعكس كل كتاباته الإبداعية الأخرى ولا يسما الروائية منها ، إذ نجده يتوارى فيها خلف الشخصيات ، مما يعفيه من تبعية الأفعال الناجمة عن ذلك العمل .

كما أن علاقاته النسائية في السيرة تعكس تلك النزعة النرجسية الواضحة المسيطرة على الكاتب وهو يصف علاقاته الغرامية ، إذ نجده يعرض شخصيته مطاردة من المرأة أينما حل.

ومن اكسترا وبعد انهاء سنته الدراسية الأولى ينتقل الى اكسفورد لحضور دورة دراسية في الأدب الانكليزي اقيمت في كلية سومرفيل ، قبل التحاقه بجامعة كامبردج ، وكانت هذه المدينة بمباني كلياتها الرائعة ومكتباتها العامرة ، واحتوائه لتمثال الشاعر الرومانسي شلي عارياً غريقاً تبكيه ربة الشعر ، وقربها في مدينة (ستراتفور اون افون) مسقط رأس شكسبير ، قد أغرت جبرا بالبقاء في هذه المدينة طيلة فترة الصيف قبل الرجوع الى اكسترا والالتحاق بجامعة كامبردج [3].

ويلاحظ على جبرا في وصفه للاماكن التي زارها في انكلترا انه لا يعطي للمكان صفاته الطوبوغرافية وانما يحاول إسقاط احاسيسه على المكان وما يختلج في نفسه من جراء تأثيره عليه ، ومنها زيارته الى الدار التي ولد فيها شكسبير " بعد أن قضيت فيها يوماً رائعاً بزيارة الدار التي ولد فيها شكسبير ، حيث تحايلت على أمين الدار ، واقترفت المحظور بان كتبت أسمي على خشبة أحدى النوافذ قرب أسم الشاعر بايرون ، ثم طفت كمن يطوف في مكان مقدس في

(1) ينظر م.ن : 155 ، 228–229.

(2) المرأة في أدب السير الذاتية المعاصر 1937–1975 ، عذراء محمد راغب رسالة ماجستير : 6.

(3) ينظر : شارع الاميرات : 29–31.

الأماكن العديدة الاخرى المتصلة بحياة شاعر الانكليز الاكبر ،، بما فيها (مسرح شكسبير التذكاري) المقام على النهر . ذلك النهر المنقط بالبجعات البيضاء الشهيرة وهي تعوم دونما جهد، كأنها في حلم دائم منذ ان كتب شكسبير قصائده ومسرحياته " [1] .

وتتكرر زيارة جبرا الى هذه المدينة التي وقع تحت سحرها ، فقد كانت العروض المسرحية المقامة على مسرح شكسبير التذكاري (حيث اقامت إحدى الفرق المسرحية الكبيرة موسماً شكسبيرياً في هذه المدينة ) قد اغرته مرة أخرى بالسفر إليها " فذهبت الى ستراتفور حاجاً مرة أخرى ، لأشاهد في اسبوع واحد ثماني مسرحيات ، وذلك بان أتردد على المسرح كل يوم . فكنت كل صباح أقرأ نصاً المسرحية التي سأشاهدها في ذلك المساء . وكانت آخرها وتتويجاً لها (مأساة هاملت) وبقيت نسختها التي قرأتها يومئذ محفوظة عزيزة بين كتبي بشيء من (سينتيمنتالية المحب) " [2] .

ان هذا النص شأنه شان النص السابق إنما يعكس لنا مدى تأثر جبرا بهذه الأمكنة ذات الوجهة الثقافية ويعكس من جهة ثانية مدى انفتاحه على هذا الجو الثقافي الذي اخذ يقبل عليه بنهم وجوع كبيرين.

ومن الاماكن التي يقف عندها جبرا في وصفه لفضاء المدينة في انكلترا منطقة البحيرات هذه المنطقة التي " نشأت فيها بدايات الحركة الرومانسية في مطلع القرن التاسع ، وكان من قادتها الشاعران وليم وردزويرث وصموئيل كولردج ، اللذان عاشا فترة مهمة من حياتهما في تلك المنطقة، وكتبا فيها الكثير من وحي (سماواتها السخية) . وقد تأثر بها الشاعران الرومانسيان الآخران ، الأصغر منهما سناً ، برسي شلي وجون كيتس " [3] .

وهنا أيضاً نجده لا يولي أهتماماً بصفات المكان الطوبوغرافية بقدر ما يصف لنا إحساسه بهذا المكان ومدى اندماجه وتفاعله معه ، ففيه يمتزج الخيال بالمشاعر بالذكريات في ذهن جبرا وهو يتجول في ربوعه " بعضها يعود الى أيام طفولتي الناضجة بتجربة الطبيعة في أولى اشكالها : التراب والصخر ، الوادي والجبل ، الأشجار والأزهار البرية ، (الحنون) والشوك ، مع زرقة السماوات الرحاب وانهمارات المطر ، والغوص في الطين ، والاستسلام للريح والرعد ... والبعض الآخر يعود الى قراءتي الشعرية لوردزويرث نفسه قبل ذلك بسنة في القدس ، وانا رائح غاد بين دارنا في منخفض مكتظ بالدور والبشر وبين الحقول القريبة من حينا حيث كانت المباني فجأة تنقطع ، وتصبح شجرات الزيتون المتباعدة ، والحشائش والنباتات البرية ، سيدة

---

(1) م.ن : 31.

(2) م.ن : 33.

(3) م.ن : 41.

الطبيعة المطلقة ، وأنا مندمج في شعر وردزويرث الذي يجعل من تجربة الطبيعة والأناس البسطاء العائشين في احضانها نشوة صوفية توحد بينه وبين الطبيعة ، ثم توحد بينهما وبين الذات الإلهية " [1] وفي هذا إشارة إلى حضور فلسطين الدائم في ذاكرة جبرا ووجدانه .

ويذكر جبرا أيضاً زيارته لقرية غراسمير قاصداً زيارة "المنزل الذي قضى فيه الشاعر (وردزويرث) سنيناً خصبة من حياته بصحبة اخته دوروثي وصديقه كولردج " [2] وهنا أيضاً يصف لنا مدى تأثره الشديد بهذا المكان ، فهو في ذلك اليوم لم يستطع التخلص من أسره ، ففي تلك العشية يعيد قراءة قصيدة كولردج القصصية (كريستابل) [3] ويكتب رسالة إلى صديقته غلاديس ، وأخرى الى أخيه يوسف في القدس يصف فيها احساسه وهو واقع تحت تأثير هذه الأمكنة الجميلة وسحرها في منطقة البحيرات.

ونستنتج من كل ما سبق ان جبرا في وصفه لفضاء المدن في انكلترا انما كان يركز على نقطة واحدة اساسية هي "انفتاح جبرا على العالم الخارجي ، هذا العالم الجديد على ذهنه في كل شيء ، وقد كان لهذا الانفتاح الأثر الكبير في تكوين الذات ، ثقافة ، وعلماً ، وعاطفة، ففي مدنها تلقى جبرا تعليمه الجامعي وحصل على شهادة البكالوريوس في الأدب الإنكليزي ، وفيها أيضاً تشرب فكره وروحه بمبادئ الحركة الرومانسية متأثراً بكبار قادة هذه الحركة ، وفيها ارتوت عاطفته بعد ذلك العطش الصحراوي القديم الذي كان يحمله بين جنبيه فيقيم اكثر من علاقة حب .

وما ان ينهي جبرا دراسته في انكلترا وبتفوق [4] حتى يقرر (القيام بأوديسة العودة الى الوطن) على الرغم من إلحاح عميد الكلية ودائرة المعارف الفلسطينية بالاستمرار في الدراسة لثلاث سنوات أخرى للحصول على الدكتوراه [5] .

لم يقف جبرا في سيرته عند هذه المرحلة ، وإنما يمكن ان نجد إشارات تفصح عن بعض ذكرياته المتعلقة بتلك الفترة من حياته ، كما يمكن ان نستشف بعض الخطوط العريضة لحياته

---

(1) م .ن : 42.

(2) م .ن : 43.

(3) في هذه القصة يلتقي كريستيان في يقعة مهجورة ليلاً بفتاة تدعى جير الدين كان قد اعتدى عليها اناس مجهولون ثم تركوها هناك ، فيأخذها كريستال الى قلعة أبيه ، وإذا هذه الحسناء الرهيبة تعمل فيه سحرها على نحو لا يفسره حتى الجنون ، ينظر : شارع الاميرات : 51.

(4) وقد كان جبرا أحد الخمسة الأوائل في امتحان الترايبوس في الأدب الانكليزي .

(5) ينظر : شارع الأميرات : 228.

في هذه المرحلة من حديث علي الفزاع في القسم الاول من المقدمة التي خصصها للحديث عن سيرة جبرا [1] .

ففي فلسطين عين مدرساً للأدب الانكليزي في الكلية الرشيدية التي كانت مدرسة ثانوية حين كان طالباً فيها ، وفي اثناء تواجده في تلك الكلية كتب روايتين باللغة الانلكيزية هما (الصدى والغدير) [2] و (صراخ في ليل طويل) كما كتب قصة (ابنة السماء) و (ملتقى الأحلام).

ولم يقتصر نشاطه على الكتابة وإنما أنشأ في عام 1944 مع مجموعة من الشباب نادي الفنون ، وكان هو رئيساً له ، وقد تميز هذا النادي بنشاطه الفني في تلك الفترة ، إذ أقيمت فيه عشرات المحاضرات والحفلات الموسيقية والغنائية قبل ان تدهمه ظلمات الارهاب الصهيوني في العام 1947 [3] .

وقد شهدت هذه المرحلة أيضاً تحسن احوال الأسرة المادية تماما ، وانتقلت الأسرة من ذلك الحي الشعبي الى منطقة القطمون في العام 1947 أي العام الذي صدر فيه قرار التقسيم الجائر وما كادت تستقر حتى اضطرت الى اخلاء هذا المسكن والعودة الى بيت لحم من جديد بسبب المعارك التي اندلعت بين العرب واليهود التي لم تهدأ حتى اندلاع حرب عام 1948 وحلول النكبة وضياع الوطن [4] .

ويقف جبرا في سيرته عند بعض اشكال الارهاب الصهيوني في تلك الفترة ومنها حادثة نسف فندق سمير أميس الذي كان يقع بالقرب من منزل الأسرة في القطمون التي صادفت الليلة نفسها التي شهدت فيها القدس ، وبيت لحم طوفاناً عنيفاً [5] .

وأمام هذه الظروف القاهرة وتردي أحوال الأسرة حالها حال مئات الأسر الفلسطينية ، يجد جبرا ان لا مفر من الاغتراب مرة اخرى "فاذا كان الاغتراب بارزا واليما بالغياب الجسدي عن الوطن ، فهو قد يكون اشد بروزا والما بالحضور الجسدي في الوطن نفسه " [6] وهنا يقرر جبرا الهجرة الى البلاد العربية المجاورة بحثاً عن العمل ، وتخلصاً من ألم النكبة وضياع الوطن

---

(1) جبرا ابراهيم جبرا : دراسة في فنه القصصي : 9-11.

(2) تقع هذه الرواية في 150 صفحة ، ولم ينشرها جبرا حتى الآن ، ينظر : جبرا ابراهيم جبرا : دراسة في فنه القصصي : 9.

(3) شارع الاميرات : 215.

(4) جبرا ابراهيم جبرا : دراسة في فنه القصصي : 10 .

(5) ينظر : شارع الاميرات : 201-202.

(6) الغريب ، جبرا ابراهيم جبرا ، مجلة الجيل ، بيروت ، المجلد 8 ، العدد 6 لسنة 1987 : 26 .

، فكانت بغداد هي المحطة الاخرى من حياته ، بغداد هذه المدينة التي شكلت منعطفاً كبيراً في حياته " حيث شكلت حياتي من جديد " [1] .

وكان وصول جبرا الى بغداد قد " تم بعد حدثين بارزين في تاريخ العراق المعاصر : (الوثبة) تلك الحركة التي غيرت الكثير من مزاج الناس وافكارهم ، وكانت بمثابة المقدمة لثورة تموز التي ستنفجر بعد عشر سنين . أما الحدث الثاني فهو الهزيمة العربية في فلسطين، ونشوء المأساة الفلسطينية ، التي انعكست آثارها بكثافة في العراق ، وربما اكثر في بلدان عربية اخرى ... حيث كان هذا البلد بالغ الشعور بالإهانة ، نتيجة المؤامرات التي رافقت الحرب العربية الإسرائيلية الاولى ، ونتيجة التجربة المريرة التي تعرض لها الجيش العراقي بشكل خاص " [2] فكان وجود جبرا في بغداد مرحلة تاريخية مهمة وحساسة في الوقت نفسه، التي لم يقصر تأثيرها على الجانب السياسي فحسب ، وانما شملت مختلف المجالات ومنها المجال الفكري والفني إذ كشفت عن "عجز الصيغ السائدة ، او استنفادها لما كانت تختزنه من حيوية ، ولما كانت تمثله من احتمالات " [3] ففي تلك المرحلة الصعبة وجد جبرا من بغداد التي كانت تعيش حقبة غليانها السياسي ، والفكري والادبي ، والفني الجديد ، الأرضية المناسبة لبلورة تلك الأفكار التي تدعو الى ضرورة التجديد التي ظلت حبيسة في داخله منذ أن كان طالباً في الثانوية بالقدس " وعندما وصلت الى بغداد في أواخر عام 1948 لم اكن اتوقع أنني سأجد فيها فجأة الأرض الرائعة الخصبة التي ستتلقى هذا العشق مني للتغيير والتجديد تلقياً سيزداد ويتسع ، بحيث يصبح في النهاية حافز أصحاب الرؤى التي بمجموعها ، ستكون قوى التغيير لا في التعبير فقط ، وانما في المنحى الحضاري الذي كان لا بد منه بعد نكبتنا في فلسطين"[4] وهو بهذه الإشارة الدالة إنما يضعنا أمام مشروع حياته الذي سيحمله ، مبدعاً، ومفكراً ، ومسهماً في الحياة الثقافية لهذه المدينة وفي مختلف مجالاتها.

ففي الشعر كان من المساهمين الأوائل في حركة التجديد فقد " استطاع جبرا مع آخرين خلق المهاد الذهني والذوقي الاستقبال الشعر ، كما ساعد في ان يرتاد آفاقاً جديدة ، خاصة من خلال الربط المتين مع تاريخ الرافدين القديم ، مما أوجد له جذوراً قوية ، ولم يعد مجرد صدى او محاكاة لموجات شعرية اخرى وافدة من خلال الترجمة او الدراسة والاطلاع"[5] .

---

(1) شارع الاميرات : 206-207.

(2) جبرا : بعض الجوانب الاخرى ، عبد الرحمن منيف ، ضمن كتاب (القلق وتمجيد الحياة) : 11.

(3) م . ن : 11.

(4) ينابيع الرؤيا : دراسات نقدية ، جبرا ابراهيم جبرا : 108.

(5) جبرا : بعض الجوانب الاخرى ، ضمن كتاب (القلق وتمجيد الحياة) : 13.

وقد تبلور صدى هذا الاهتمام والمساهمة في حركة التجديد في الشعر من خلال كتاباته النقدية واحاديثه الإذاعية التي كان يذيعها من إذاعة بغداد ، باللغة الانكليزية وبمعاونة صديقه علي حيدر ، يساند فيها الحركة الشعرية الجديدة ويؤكد على اهمية الشعراء والقصاصين المحدثين في بغداد ولا سيما محاولات نازك الملائكة فيما تكتبه من الشعر الحر [1] . وما قلناه عن دوره في التجديد في الشعر الحديث ينطبق أيضاً على دوره في التجديد في الفنون التشكيلية ، إذ نجده يسهم إسهاماً فعالاً في دفع عجلة هذه الحركة الفنية إلى الأمام من خلال المحاضرات التي كان يتولى إلقاؤها للتعريف بهذا الفن وابرز مدارسه الفنية وابرز ممثليها والكتابات النظرية والتطبيقية حول المعارض الفنية المقامة في تلك الفترة ، وإبراز مواطن ضعفها وقوتها ، ومشاركته النشيطة في إقامة التجمعات الفنية ، وما يترتب على ذلك من حوار خصب بين انصار المدارس الفنية المختلفة وأساليبها [2] .

وجاء تأسيس جماعة بغداد للفن الحديث تتويجاً لكل هذه الجهود التي بذلها جبرا مع نخبة من الفنانين العراقيين المجددين وعلى رأسهم الفنان جواد سليم ، وكان المعرض الأول لهذه الجماعة في 21 / نيسان / 1951 بمشاركة نخبة من الفنانين العراقيين ، كان معظمهم من زملاء جواد سليم واصدقائه ومنهم جبرا إبراهيم جبرا [3] . وقد قدر لهذا المعرض أن يكون بداية مرحلة جديدة من تاريخ العراق الفني " لقد كان المنطلق ببغداد ، لا في الرسم والنحت فقط ، وما رافقهما من كتابات وتنظير حول الفنون التشكيلية ، بل في المواقف الفكرية والأسلوبية التي راحت تعم فنون القول أيضاً ، في العراق ، ثم في الوطن العربي بأجمعه " [4] فالمخيلة العربية كما صورها جبرا كانت " يومئذ في بداية توثب رائع تريد تحقيق الجديد والأصيل ، وكل ما يعطي الأمة املاً في مستقبل لا يتخطى فقط الموات الذي ابتليت به لأكثر من سبعمائة سنة ، بل يتخطى حتى ما انجزته النهضة التي جاءنا بها التنوير منذ اواسط القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية " [5] .

وفي الموسيقى نجده يقوم بإنشاء جمعية للموسيقى الكلاسيكية اشتركت فيها مجموعة من طلبة الكلية في محاولة منه في لتعريف الطلبة شيئاً من هذا الفن الذي " هو غير الطرب الذي

---

(1) ينظر : شارع الاميرات : 179.

(2) القلق وتمجيد الحياة : 14.

(3) ينظر جواد سليم ونصب الحرية : دراسة في آثاره وآرائه : 47.

(4) شارع الاميرات : 116.

(5) م .ن : 121.

اعتادوه في الموسيقى العربية مؤكدا أيضاً على تداخله في الفنون والآداب التي يدرسونها"[1] وتتسع دائرة هذه الجمعية لتشمل العديد من اساتذة الكلية وأصدقاء الطلبة واساتذة الكليات الأخرى لتتحول فيما بعد الى أمسية أسبوعية يحضرها نخبة من الطبقة المثقفة في بغداد " بدءاً بالعميد والأساتذة ، وامتداداً بالطلاب والطالبات ، وانتهاءً بالأصدقاء العراقيين والأجانب " [2] .

وفضلاً عن كل هذا ، تكشف لنا السيرة عن ذلك النشاط والحيوية التي كان يتمتع بها وهو يؤدي مهنته التدريسية إذ نراه موزعا بين أكثر من كلية ، كلية الآداب التي أسس قسم الأدب الإنكليزي فيها مع زميله دزموند ستيوارت ، وفي دار المعلمين العالية ، وكلية الملكة عالية للبنات ، "في كل من هذه الكليات كنت أساهم في نشاطات الطلبة ، الذين أنشات لهم جمعية للمناظرات ، بالعربية وأحياناً بالانكليزية ، وأخرى للمسرح ، وثالثة للموسيقى ، وكثيراً ما يأتينا ضيوف عليها مثقفون من المدينة ، وطلاب وأساتذة من كليات أخرى وأشرفت يومئذ على مرسم جديد في كلية الأداب لهواة الرسم من الطلاب ارسم فيه انا أيضاً معهم ... وفي أثناء ذلك كنت اواصل نشر ما اكتب من قصة او مقالة او قصيدة في مجلة (الأديب) البيروتية (لصاحبها ألبير اديب) وكانت آنئذ بغداد مثار اهتمام كبير لاستقطابها الشباب المجديدن من الوطن العربي . ولست أدري كيف كان يتسع لي الوقت أيضاً ، في تلك السنة لإعطاء دروس خصوصية لبعض الفتية والفتيات في غرفتي في (فندق بغداد) " [3] .

ومن نشاطاته ايضاً تنظيمه للموسم الثقافي في كلية الآداب والعلوم جرياً على تقاليد الكليات السائدة في تلك الفترة معتمداً في ذلك على أساتذة الكلية أنفسهم ، إذ كان يقيم في كل اسبوع او أسبوعين منبراً حراً في قاعة كلية الملكة عالية يلقي فيها أحد الأساتذة محاضرة على مسامع الجمهور المحتشد في القاعة . وكان من بين من القى محاضرة على هذا المنبر الدكتور علي الوردي الذي يشير جبرا أن شهرته بدأت من هذه المحاضرة التي القاها و كان لها صدى غير اعتيادي ، أثارت بين المحتشدين نقاشاً طويلا ، ورددت الصحف في الأيام التالية الكثير من محتوى المحاضرة والنقاش [4] .

وهكذا غدا إسهام جبرا في الحياة الثقافية ببغداد وسط ذلك "الفوران الثقافي الذي كان يتصاعد في المدينة " [5] على حد تعبيره " جزءاً ولو صغيراً من طاقاتها المستقبلية الهائلة التي

---

(1) م.ن : 191.

(2) م.ن : 192.

(3) م.ن : 98-99.

(4) ينظر : م.ن : 113-114.

(5) م.ن : 113.

كنت مؤمناً بها " [1] وغدت بغداد جزءا من تاريخ جبرا لا يمكن فصله عنه " إذ لم تأخذ مدينة من الحضور والأهمية في حياة رجل ثقافة وادب وفن او احدثت من الأثر في نفسه وفكره ، كما أخذت بغداد وأحدثت في حياة جبرا وفكره . كما لم تنل مدينة من الاهتمام الذي يبديه بها مثقف واديب بتفاصيل حياتها الغنية ادباً وفناً ومعطيات حياة حاضرة وتاريخاً ، مثلما نالت بغداد من اهتمام جبرا ، في وجوه الحياة كافة . بل لا يمكن الحديث عن الجديدي والتجديد في حياة بغداد خلال ما يقرب من نصف قرن من حياتها دون ان يكون لجبرا حضوره في هذا الحديث ، دوراً وابداعاً وفكراً نقدياً" [2] ويظل ما انجزه جبرا خلال وجوده في بغداد فيما يقرب من نصف قرن " من قصة قصيرة ، ورواية ، وشعر ، ونقد ، ودراسات وترجمات ، تمتد في حقول كتاباته الشخصية جميعاً ... وهو المنجز الأكبر ، والأهم والأبقى ، الذي حدد به جبرا شخصيته في عصره / عصرنا هذا – شخصية المبدع الكبير " [3] .

وتشتد اواصر هذه العلاقة أكثر فأكثر بين بغداد وجبرا عندما يرتبط بالمرأة الأروع في حياته " تلك التي جعلت لكل ما حدث لكلينا وفي السنين اللاحقة ، سحراً تتمحور فيه معاني الحياة ، ليس فقط كأناس وعلاقات متداخلة يغني بعضها بعضاً ، وليس فقط كتجارب متواترة تعاش بكل لذاتها وعذاباتها وتناقضاتها ، بل كإبداعات أيضاً تعطي التجربة كل مرة قيمها العميقة وتفردها الدائم " [4] فتغدو بغداد موطن الحبيبة المكان البديل عن الوطن فيه ينشئ أسرته ، وفيه يجد نوعاً من الراحة والاستقرار والاطمئنان على المستقبل ، يمكن معه التفكير بان انجاب الأولاد امر ممكن " مطمئنين ولو إلى زمن ، إلى ان الأيام لن تغدر بنا أو بهم"[5]. وهكذا شكلت بغداد في حياة جبرا منعطفاً كبيراً ، وحداً فاصلاً بين مرحلتين كان لهما وقع مؤثر في حياته ، مرحلة الحياة في القدس إبان النكبة الفلسطينية في العام 1948 وانكسار الذات في الواقع ، ومرحلة الحياة في بغداد ، والانتصار الذي تحققه الذات المبدعة من خلال المساهمة في ثورة التجديد للنهوض بالواقع العربي " والحضارة العربية الجديدة الرافضة لكل مواضعات التقليد والتقليدية ..

---

(1) م.ن : 49.

(2) خطوات مع جبرا ابراهيم جبرا في شارع الاميرات ، ماجد السامرائي ، مجلة عمان ، الأردن ، العدد 49 لسنة 1999 : 21.

(3) جبرا ابراهيم جبرا والمدينة القدس –بغداد القدس : بحثاً عن الزمان المجسد : 89.

(4) شارع الاميرات : 102.

(5) م .ن : 252.

.هنا ، ستلتقي القدس ببغداد ، ويقوم التناظر التفاعلي الحي بين (الرؤيا) و (الواقع) وبين (الزمان) و (المكان) " [1] .

ومن المدن التي ظلت حاضرة في ذاكرة الكاتب ، باريس هذه المدينة التي زارها صيف عام 1951 للسياحة والاطلاع على المعالم الثقافية فيها ، التي كان لها موقع موثر في نفس جبرا وفي تكوينه الثقافي ، فهي مدينة الأدب والفن ، مدينة المتاحف ، والمسارح ، والأوبرا ، والمعالم الحضارية ، وهذا ما يركز عليه جبرا في رسمه لفضاء هذه المدينة ، إذ نجده يقف عند (قوس النصر) و (برج إيفل) هذين المعلمين الحضاريين اللذين تميزت بهما فرنسا [2] . ويقف أيضاً عند متحف اللوفر ليصف لنا إحساسه بهذا المكان " ولما ذهبت الى متحف اللوفر أول مرة ، ورحت اتجول في قاعاته طابقاً بعد طابق ، اصبت بدوار غريب ، لذيذ ، كل ما درسته بجهدي عن الفن ، عن طريق الكتب ، بدءاً بالحضارات الاولى حتى آخر حركة في الرسم والنحت ، وجدته هنا مجسداً في هذه الآلاف من اللوحات الحقيقية والتماثيل التي تغريني دوماً بلمسها كان فيها استجابة المعشوق : في اللوفر أولاً ، ثم في المعارض الكثيرة في كل مكان" [3] .

وهذا ما يفعله أيضاً عندما يقف عند متحف الاورانجري "يوم ذهبت الى حدائق التويليري ، لزيارة متحف الاورانجري ، حيث تحفظ لوحات الانطباعيين وما بعد الانطباعيين أي فرح عارم هزني حتى النخاع ! وكما هو شأني كلما فاجأني الجمال ، شهقت وفاضت عيناي وأنا أحاول يائساً كبح دموعي ، لئلا يراني الزوار ويعجبون لبكائي ! هكذا كان حالي حين رأيت لأول مرة لوحات مونيه ، وديغا ، ورنوار ، وبيزارو ، وسزلي ، وسيزان ، وفان غوخ ، والآخرين ، رأيتها بألوانها واحجامها الحقيقة ، أما فان غوخ ، باصباغه الكثيفة ، وكأنها للتو قد أسقطها ضربات على القماشة من فرشاة عريضة محملة بالأصفر والأزرق والأخضر –فقد كهربني ، وأوصل إلي كما بانتفاضات الجنون ، إدراك العبقرية التي ، إذ تتملك الفنان ، تحييه بقوة مضروبة بالف ، ليس له بعدها إلا الموت عشقاً أو ألماً لما رأت العين ، وصنعت اليد ، واكتنز القلب " [4] .

ونكشف من هذا النص مدى تأثير هذه المناظر في نفس جبرا ، التي تدل عليها المفردات والجمل المفعمة بالأحاسيس (هزني حتى النخاع!) ، (شهقت وفاضت عيناي) (فقد كهربني) ، (الموت عشقاً او الماً) ، (واكتنز في القلب).

وقد وجد جبرا في باريس ذلك النبع الذي يغذي فكره ، ويعطي لتجربته بعد اكبر بعد ذلك الجوع الثقافي الذي اصابه منذ مغادرته لكمبردج"كنت في حركة دائبة ، العب دور المتلقي الذي اصابه النهم بعد سنوات من جوع ثقافي منذ مغادرتي كمبردج ، وكنت بدأت اشعر انني استنفذ

---

(1) جبرا ابراهيم جبرا والمدينة القدس –بغداد – القدس : بحثا عن الزمن المجسد : 90.

(2) ينظر شارع الاميرات : 152.

(3) م .ن : 153.

(4) م .ن : 153–154.

خزيناً ذهنياً لا بد من إعادة ملئه ، وها هي المدينة التي تعطيك وتعطيك بقدر ما بوسعك أن تأخذ ، وتلتهم ، وعشقي للفنون هنا ما يغذيه ويشحذه كل يوم بمزيد من اللهفة والمتعة " [1] .

ولبيروت أيضاً مكانة خاصة في حياة جبرا إلا انه لا يقف عندها كثيراً في سيرته ، وإنما يؤكد على أهميتها بالنسبة له في النهاية وكأنما يريد بذلك أن يوحي للقارئ بأن هناك جزءاً كبيراً من هذه الحياة الحافلة بالإثارة والنشاط الفكري والابداعي بقي من دون سرد لأسباب خاصة تتعلق به إذ يشير في السيرة الى زياراته الصيفية المتواصلة الى لبنان بصحبة زوجته لميعة طول عقدين من الزمن (1952–1974) الى نشوب الحرب الأهلية المأساوية في ربيع العام 1975 " ولكن بين صيف 1952 وصيف 1974 كان لنا في لبنان ، بجباله وسواحله ، اكثر من عقدين من سنين مكتظة بتجاربها المتوقدة ، عرفنا فيها انا ولميعة ، عديداً من الأناس المثيرين ، وضروباً من الصداقة والحب ، والنشاط الفكري والإبداعي ، اعطت حياتنا وحياتي أنا على الأخص بعضاً من أجمل تجاربها وامتع حوافزها ، فلولا بيروت ، حتى في السنوات اللاحقة ، لكانت حياتنا أفقر وأضمر ، ولفقدت الكثير من حلاوتها ونشواتها"[2] .

ومن الأمور التي يمكن ان نستشفها من سيرة جبرا أن بيروت مثلت في حياة جبرا أيضاً البؤرة التي منها ينطلق إلى انحاء العالم إذ شكلت أحد الأقضية الواصلة في السيرة التي تصل بين عالمين مختلفين ، فقد كانت بيروت حلقة الوصل بين بغداد ، ومدن العالم المختلفة في رحلات جبرا [3] .

---

(1) م .ن : 153.

(2) م . ن : 263.

(3) ينظر : م . ن : 146–147 ، 161 ، 229–230.

## المراجع :


1. البئر الاولى ، جبرا ابراهيم جبرا ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، 1986.
2. جبرا ابراهيم جبرا: دراسة في فنه القصصي ، علي الفزاع ، دار المهد للنشر والتوزيع، ط1 ، 1985.
3. جواد سليم ونصب الحرية: دراسة في اثاره وارائه ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، 1974.
4. الرحلة الثامنة ، جبرا ابراهيم جبرا ، دار المكتبة العصرية ، ط1 ، بيروت ، 1967.
5. شارع الاميرات ، جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1994.
6. عرق وبدايات من حرف الياء ، دار الاداب ، ط4 ، بيروت ، 1981 .
7. القلق وتمجيد الحياة ، مجموعة مؤلفين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، بيروت ، 1994 . (كتاب تكريم) .
8. ينابيع الرؤيا: دراسات نقدية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، بيروت ، 1979.


## - البحوث المنشورة في الدوريات :


1. جبرا ابراهيم جبرا والمدينة القدس –بغداد– القدس: بحثا عن الزمان المجسد ، ماجد السامرائي ، مجلة فيلادليفيا الثقافية ، مجلة عمان ،الاردن ، العدد 49 لسنة 1999 .
2. خطوات مع جبرا ابراهيم جبرا في شارع الاميرات ، ماجد السامرائي ، مجلة عمان ، الاردن ، العدد 49 لسنة 1999.
3. الغريب ، جبرا ابراهيم جبرا ، مجلة الجيل ، بيروت ، المجلد 8 ، العدد لسنة 1987.


## - الرسائل العلمية :


– المراة في ادب السيرة الذاتية المعاصر 1937–1975 ، عذراء محمد راغب ، رسالة ماجستير باشراف الدكتورة عربية توفيق لازم ، مقدمة الى كلية الاداب – جامعة بغداد ، 1997.